المثقّف العربي
وآلام النمو

سمير خلف

يتعرض المثقفون ، بصفتهم قطاعا اجتماعيا ، لاضطرابات كثيرة ، حيثما كانوا وفي كل حين تقريبا. وتكمن بعض هذه الاضطرابات والتوترات في الدور العام الذي يقوم المثقفون به بوصفهم مبدعي الثقافة وحملتها ، ويعكس بعضه الآخر الوسط السياسي والاجتماعي والاقتصادي الخاص الذي يعيشون فيه . فمع ان المثقف الامريكي ، مثلا ، يتمتع في مجتمعه بقوة ومركز لا يتمتع بهما زملاؤه في المجتمعات الاخرى ، الا انه لا يزال « مضطرا لان يتجنب اغرائين توأمين ، هما اغراءا الانسحاب التام او الاندماج التام » . ومع ان النظام الامريكي اخذ الآن يتقبل المثقفين بازدياد في جوانب مختلفة منه ، ويعترف بوجودهم ، الا ان خوفا اخذ يستبد بهم ، من ان يتنازلوا بذلك عن رسالتهم او ان يخسروا شيئا من الدور الابداعي والنقدي الذي يطمحون ان يلعبوه في المجتمع . غير ان عزلة المثقف او غربته التامة ، يمكن لها هي ايضا ، من الجهة الاخرى ، ان تحيق به الهزيمة فيما ينتوي تحقيقه . وقد وجد بعض المراقبين المثقف الانكليزي « مهذبا ووديعا وهاويا ، وانه قريب جدا من الطبقات العليا ومن الانظمة القائمة بحيث يصعب عليه ان يمارس استقلالا حقيقيا في الفكر والابداع » . ويظهر على المثقف الفرنسي ايضا انه مصاب بالمعضلة نفسها : « فليس في العالم بلد للمثقفين فيه نفوذ اكثر ، ويستأثرون فيه باهتمام اكبر ، ويتمتعون فيه بامتيازات اوفر ، مما هو الحال في فرنسا . غير ان العلاقة بين المثقفين الفرنسيين والمجتمع الذي ينتمون اليه هي علاقة مليئة بالمفارقات » .

مشاكل المثقف العربي المعاصر ، كمشاكل المثقف في المجتمعات المتطورة الاخرى ، تختلف عن هذه طبيعةً وخطورة. فالمثقف « الباحث ، المنعزل ، والمعنيّ بالامور في الوقت نفسه » لا يزال نادر الوجود عندنا . ولم يحصل المثقفون بعد في معظم انحاء عالمنا العربي على حس كافٍ بهويتهم ، ولا على وعي كافٍ بذاتهم كقطاع اجتماعي ، ليتركوا اثرا مرموقا . وليسوا ، من الجهة الاخرى ، منعزلين عن المجتمع تمام الانعزال ، بحيث يكون بامكانهم نقد النظام الاجتماعي بشكل فعال ، او الثورة عليه ، وهم خارج المجتمع وعلى هامشه . ومع هذا (وهنا تكمن المفارقة) فان عددا متزايدا من « المثقفين » يجد نفسه في مراكز القوة والسلطة . ذلك ان مثقفينا ، كالطبقة الوسطى التي ينتمون اليها ، حصلوا على القوة قبل

ان يحصلوا على المركز والطمأنينة الاجتماعيين . لذلك فهم يستعملون قوتهم لا للدفاع عن مركزهم وطمأنينتهم بل لايجاد مركز وطمأنينة لانفسهم .

الواقع ان مهمتهم هذه مهمة ثورية ، والمنتظر من النخبة المتعلمة ان تكون حملة مصابيح العقلانية والعلمانية في مجتمع لا تزال تسيطر عليه القوى التقليدية غير العقلانية . اي ان التوتر الذي يواجه المثقف العربي ليس بالدرجة الاولى توتر الغربة او الاندماج ، ولا درجة اقترابه من مركز السلطة والقوة او ابتعاده عنه . انما ينبثق هذا التوتر عن واجب المثقف بان يوفق ويلائم بين العناصر التقليدية والعقلانية في المجتمع. انه توتر «الانسان الهامشي »، الانسان الممزق بين ما يمليه العقل والمنطق وبين قيم حضارته التقليدية .

وسنحاول في هذه المقالة ان نخوض ناحيتين من نواحي المشكلة : فنصف بعض المعالم المميزة لحياتنا الثقافية، ونستعرض التوتر الناشب بين مثقفينا والمجتمع. فهذا سبيلنا الوحيد الى تقييم دور المثقفين والى تحديد طبيعة مشاكلهم في المجتمع العربي المعاصر .

بعض المعالم المميزة لحياتنا الثقافية

من هم الذين تحق تسميتهم بالمثقفين في العالم العربي ؟ ان تعبير « المثقف » اصبح يشمل جمعا كبيرا من الناس والنشاطات ، بحيث صار من الصعوبة بمكان الوصول الى تعريف واحد وموجز لهذا التعبير. فقد ادعى هذا اللقب مختلف انواع الناس في ازمنة وفي امكنة مختلفة — من العمال غير اليدويين الى خريجي الجامعات ، ومن الخبراء الى العقائديين النظريين، ومن رجال العمل الى رجال الفكر ، ومن الفلاسفة والفنانين والصحافيين الى رجال الادارة والوظيفة . ونحن ، تحاشيا لمثل هذه الفوضى ، سنستعمل التعبير في مقالنا هذا بشكله الواسع ، ليشمل جميع الذين يخلقون الثقافة ويحملونها ويطبقونها . فليس ضروريا ، على هذا الاساس ، اعتبار خريج الجامعة مثقفا لمجرد انه تلقى دراسته في الجامعة : بل تحق تسميته بالمثقف ان هو كان يسهم في عملية خلق الثقافة ونشرها وتطبيقها ، فحسب. وليس ضروريا ، ايضا ، استثناء الشخص الذي لا ثقافة جامعية له من هذا اللقب ، لمجرد انه لم يحظَ بثقافة جامعية .

من المهم ان نميز بين الخلاقين من المثقفين وبين الذين يقتصر نشاطهم على نشر الافكار وتطبيقها . فمن ناحية نظرية، تتألف نواة اية جماعة ثقافية من الكتّاب والادباء والفلاسفة والعلماء والبحاثين والفنانين الذين «يعيشون على الثقافة ومن اجل ممارستها» ، على حد تعبير المفكر الفرنسي ريمون ارون . وهؤلاء ، في سائر المجتمعات تقريبا ، هم القلة الغيورة المكرسة. غير ان اغلبية القطاع المثقف تتألف من البحاثين والكتّاب والفنانين والمحققين الذين ينتجون باستمرار دون ان يبدعوا فكرا اصيلا او اشكالا جديدة ؛ ويأتي من بعدهم

الصحافيون الجديون والمعلقون السياسيون والمراقبون الاجتماعيون، والذين يعملون بشكل عام في اجهزة الاتصال العامة ويقومون بدور صلة الوصل بنشرهم الافكار على الآخرين ؛ثم يأتي اخيرا المروجون – من مدّعي الثقافة واصحاب المصالح التجارية الذين « يتوقفون عن التفسير ويبدأون بالتضليل» ويرخصون المستويات الخلاقة والنتاج الحضاري في المجتمع .

اذاً ان نحن حصرنا تعريف المثقفين في معناه الضيق – اي في الاشخاص الذين يجدون متعة وربما مكسبا في خلق الافكار او في التلاعب بها اكثر مما يجدونها في تطبيقها – فان عددا قليلا جدا يستحق لقب المثقف في العالم العربي . لهذا السبب سيكون استعمالنا للقب بشكل اعم – ليشمل ايضا اولئك الذين يشتركون في نشر الثقافة وتطبيقها. الا ان التمييز بين الفئتين يجب ان يبقى في اذهاننا ولا يغيب عنها . كما اننا سنستثني من تعريفنا افراد المهن الحرة ، من الاطباء والمحامين والمهندسين وغيرهم ، ممن يهتمون بانتاجهم العملي اكثر مما يهتمون بالثقافة بشكل عام .

اما تحديد بعض الخصائص العامة للحياة الثقافية في العالم العربي ، فليس على المقدار نفسه من الصعوبة . فواضح من اي مراقبة سريعة ان المثقفين ، كقطاع اجتماعي، هم خليط مفكك ، يفتقدون حتى الآن الهوية والوعي الطبقي المعهود في فئات المجتمع الاخرى . وفضلا عن انهم ضعفاء من حيث المركز والطمأنينة ، يبدو ايضا انهم لا يتمتعون بقسط وافر من الحرية الثقافية .

التفكك السياسي والثقافي

وصلت المدنية العربية في مراحل تطورها الحضاري اوج ازدهارها في المراكز الجغرافية والروحية. فمنذ اقدم الازمان كانت اسواق الجاهلية، كعكاظ، مراكز يلتقي فيها منتجو البضائع والمنتجات الثقافية ، ومستهلكو هذه وتلك، ويتبادلون فيها البضائع والافكار . وبمجيء الاسلام اصبحت المساجد هي مركز الثقل للقوى الروحية والزمنية والثقافية في المجتمع. وبعد ذلك، في العصور المتوسطة الذهبية، اضحت مختلف انواع النقابات والخانات والتجمعات هي السبل لصهر حياة الامة الثقافية .

لذلك فمع ان التهمة التي يكيلها ولفرد سميث بان « المثقف كان مقلقلا في التراث الاسلامي التاريخي وعلى الهامش » تهمة تقبل الاخذ والرد ، يستطيع المرء على الاقل ان يؤكد ان المجتمعات الثقافية التي اتخذت من الاسواق والمساجد والنقابات والتجمعات مركزا لها لم تكن نادرة ولا مقلقلة . فقد لعبت دورا بارز الاهمية في صهر الحياة الثقافية وظلت تلعبه حتى القرن التاسع عشر. ولا ننسَ ان الطرق الصوفية انما ظهرت ونشأت في مراكز مثل هذه . كتب السير هاملتون غيب : « ان اعظم ما حققته الصوفية هو ان طرقها نجحت (عمدا او عن غير عمد) في خلق نظام ديني موازٍ للوحدات التي كان

يتألف منها المجتمع الاسلامي ، ومتوحد معها . فكانت لكل قرية ، ولكل نقابة في المدن ، ولكل فرقة في الجيش ، بل ولكل طبقة في حال الهند ، زاوية صوفية تجمع بين الافراد في ولاء ديني عام ، وتعطي احتفالاتهم الدينية روحا اخوية جماعية » . ويصور لنا ابن بطوطة ، رحالة القرن الرابع عشر الشهير ، اهمية هذه الزوايا في تأمين الملجأ والحس بالهوية واللحمة بين المثقفين .

لم يبقَ حتى اليوم من هذا الشعور الاخوي والجماعي ، في الشكل او الروح ، الا القليل . والحق ان زواله كان امرا محتما . فلقد اضعف كل من ازدهار المدن وتوسع التجارة والصناعة من هذه الرابطات وخفف من تجانس الاخويات والطرق . والغريب ان نمو وسائل الاتصال وتحسن سبل المواصلات لم يكن له اثر كبير في اعادة خلق هذا الحس الجماعي ولا في تنوية العلائق بين المثقفين العرب؛ وان المثقفين العرب لم يحاولوا ايجاد بديل عن ذلك (بديل افضل او اسوأ) في تجمعات اخرى – كتجمعات اقرانهم الامريكيين في غرينتش فلدج او الفرنسيين في سان جرمين ده بري – تعمل على تحقيق شيء من تشوقهم لاختبارات وتجارب جماعية اخوية .

وقد اسهم التفكك السياسي ، ايضا ، في تفتيت الحياة الثقافية . كان التشقق بين المثقفين يحصل حتى في العصور الاسلامية الاولى، ولكنه كان ثقافي الطبع في الغالب، مثل الانقسام العام في المجتمع بين « العلماء » و« الامة ». اما تفسخات زماننا الحاضر والفجوات العقائدية فيه فانها تخضع في الدرجة الاولى للتيارات السياسية والطائفية . وليس في نقاشاتنا اليوم ما يماثل النقاش الجدي والحيوي الذي دار بين العلمانيين الاحرار والمجددين الاسلاميين واستهلك طاقات المفكرين الاجتماعيين والسياسيين في مطلع القرن الحالي . ولا يمكننا ان نفاخر اليوم بعمالقة ثقافة من طراز محمد عبده ورشيد رضا ولطفي السيد وبطرس البستاني (ونكتفي بتسمية القليلين فقط) الذين استطاعوا ان يسموا على مشاكل عصرهم المحلية الضيقة ويعالجوا الازمات القومية العامة بنظرة اعمق واشمل .

عن مثل تلك المناقشات انبثقت تقاليد الفكر ومدارسه ، وعرف المثقفون بولائهم والتزامهم لهذا التقليد اولذاك. لكن القليلين جدا من ابناء هذا الجيل من المثقفين لا يزالون يحتفظون بمثل تلك الولاءات والالتزامات. فقد قسمتهم الاختلافات السياسية المتغلبة عليهم. وفيما عدا بعض المناسبات الرسمية والاحتفالات، لا يوجد الا اليسير من الحوار الفعال ومن التبادل في الرأي وفي النتاج الحضاري بينهم. اما المؤتمرات والندوات، على قلتها، فنادرا ما يحضرها ممثلون عن الدول العربية كلها . فغالبا ما يعجز ممثلو البلد الواحد عن حضور مؤتمرات اكاديمية في البلد الآخر ؛ وباستثناء الاتهامات العنيفة والتهجمات المبتذلة التي

تتبادلها الاذاعات والصحف، تكاد لا تكون هناك اية رابطة بين مثقفي البلد العربي والبلد العربي الآخر .

ومثلما يتمزق المثقفون العرب على النطـاق العربي العام ، يتمزقون ايضا على النطاق المحلي بسبب الولاءات المقسمة والتحزبات غير الثقافية. فنجد، حتى في بلد صغير كلبنان، ان الرابطة بين علمـاء جامعاته الاربع ضعيفة واهية . ولعل الاسمـاء التي تحملها هذه الجامعات (العربية ، اللبنانية ، الامريكية ، الفرنسية) والمصالح الثقافية التي تمثلها ، هي ما يجعل تعاون الزملاء المنتمين الى هذه المعاهد المختلفة والاتصال بينهم يصل حدا ادنى. فكثيرا مـا يلتقي المرء باستاذ في الجـامعة الامريكية ، مثلا ، واسع الثقافة يجهل تمام الجهل حتى اسماء الكتـّاب في حقله هو في جامعة اخرى كاليسوعية الفرنسية ، كما يجهل طبعا البيئات الثقافية التي ينتمي اليها اولئك الكتـّاب .

يشدد على هذا التفكك، ويمنع حصول تفاهم اوثق بين المثقفين، ما لاحظه ولفرد سميث من ان « المثقف المسلم المعاصر اينما كان ليس مزدوج اللغة فحسب بل هو مزدوج الثقافة اللغوية » . وبكلام آخر : ليست القضية مجرد الفة مثقفنا للغتين او لثقافتين مختلفتين ، بل هي تنبع من كون الكثيرين من المثقفين العرب الذين تلقوا دراستهم في المعاهد الاجنبية يفكرون بلغة ويتحدثون ويكتبون بلغة اخرى. ولا يندر ، على سبيل المثال، ان يُجري باحث شاب في لبنان ابحاثه ويقوم بكتابتها بالانكليزية، ويتحدث مع اصحابه بالفرنسية، ويخاطب والديه بالعربية . وان كان هذا نعمة فهو ، بالتأكيد، نعمة لا تخلو من ضرر. فان العلماء والباحثين ذوي الثقافة الاجنبية (في بعض العلوم ، خاصة العلوم الاجتماعية التي لم تعرب مصطلحاتها بعد تعريبا كاملا مقبولا به في كل مكان) يجدون صعوبة في الاتصال مع الآخرين بالعربية . وحتى اذا هم صمموا على الكتابة بالعربية ، فقد تفشل كتابتهم في الوصول الى افهام الآخرين، – ربما باستثناء اولئك الذين يعيدون في ذهنهم ترجمة المادة الى المفاهيم الاجنبية . يضاف الى هذا ان قلة الصحف ودور النشر المحترمة تجعل بعض الباحثين الشبان يحجمون حتى عن الاهتمام بالكتابة بالعربية . ذلك ان مركزهم الثقافي في مجتمعهم كثيرا ما يتأثر بحكم الاجانب عليهم ورأيهم فيهم ، كما ان المطبوعات الاجنبية تضمن لهم قراء اكثر وانتشارا اعم .

وباختصار ، ان ما يؤول اليه وضع كهذا هو توسيع الشقة اكثر فاكثر بين المثقف والمثقف . ويؤدي مثل هذا التفكك اللغوي (الى جانب التفكك السياسي والجغرافي) الى انعدام اي حس بالترابط بين المثقفين . وبدون هذا الحس لا يستطيع المثقفون ان يكوّنوا لانفسهم قراء موحدين ، ولا ان يحملوا المجتمع على الشعور بوجودهم .

الطبقة والمركز والسلطة

يتوقع من المثقف، كمبدع للثقافة وناقل لها، ان يتغلب التزامه لعالم الفكر والخلق على ولاءاته والتزاماته الاخرى كلها. وقد نجح مثل هذا التغلب تدريجيا، في الغرب على الاقل، في قهر فروقات المولد والمركز والثروة، وفي توحيد المثقفين على اساس وحدة مصالحهم واختباراتهم. لكن الامر يختلف في الشرق الاوسط. فبالاضافة الى ما في مثقفنا العربي من اضطرابات وفي مشاعره من تضارب، لا تزال ولاءاته تقليدية بشكل عام. وهو يستمد رضاه وطمأنينته من الروابط المحلية الاجتماعية ومن قراباته اكثر، كما يبدو، مما يستمدها من اشتراكه بمهمة فكرية. وارتباطه بالحلقات التقليدية لا يزال اكثر معنى من الناحية السوسيولوجية بالنسبة له، ولا يزال هو يربط ذاته بقضايا غير ثقافية، ربطا جزئيا ان لم يكن كاملا. وان هو تعاطى نشاطا ثقافيا ما، فانه لا يكون لاكثر من قضاء الوقت او اللهو، وقلما يقوم بهذا النشاط باهتمام كامل وبحماس. يضاف الى ذلك اننا نطلب المعرفة والدراسة العالية عموما كوسيلة لشيء آخر – وهذا في الواقع متوقع في المجتمعات النامية. وما دامت هذه النظرة المصلحية للعلم قائمة، يبقى الامل ضعيفا بنمو رغبة في العلم وتعطش للعمل الثقافي كغايتين بحد ذاتهما. « فإن كل شيء يقصر الانسان عن نشدانه لاجله هو، لا كغاية، يظل نشدانه له نصف نشدان »، كما يقول شوبنهور.

ان استمرار ظروف كهذه مسؤول بعض المسؤولية عن بقاء المثقفين في العالم العربي كقطاع اجتماعي بدون صفات خاصة وبدون شكل محدد. فهم لا يزالون يفتقدون الهوية والوعي الطبقي الموجودين في قطاعات اخرى من المجتمع. كما انهم لا يخدمون كمناصرين للطبقات او الجماعات المتصارعة او كناطقين بلسان عقائدها. ولا يشكلون ارستقراطية جديدة او نخبة جديدة، كما هو الحال في بعض الدول النامية في آسيا وافريقيا. فهم ليسوا بارستقراطية، لانه ليست لهم بعد شعارات المركز والامتياز الاجتماعيين، وليست لهم القدرة على فرض الاذواق وانماط السلوك الاجتماعي. وهم ليسوا بنخبة، بالمعنى الصحيح للكلمة، لانهم لا يفرضون قيم مجتمعهم ومُثُله ولا يعبرون عنها. ان الانتلجنسيا النامية (كالتقنيين والخبراء والمهندسين الاجتماعيين والبيروقراطيين والعسكريين)، لا المثقفين، هي التي تقوم بهذه المهمة.

غني عن القول ان وضع المثقفين لم يكن على هذا الشكل دائما. فالحياة الثقافية في عصور الاسلام الاولى لم تكن اكثر انسجاما ووحدة فحسب، بل كان للعلماء فيها مركز وامتياز في المجتمع لا يضاهيان. فكانوا الاوصياء على العقيدة الدينية ومفسريها، مثلما كانوا الاوصياء على الشريعة ومفسريها. كانوا علماء باحثين بالمعنى الشامل للكلمة، لا مجرد

اختصاصيين في امور الدين كما يظن احيانا . وكثيرا ما كانوا يكتبون ويحاضرون في مختلف نواحي العلوم الاسلامية والفكر الاجتماعي .

قد يقال ان عدم تحسس المثقفين العرب المعاصرين بهويتهم حتى الآن وعدم وعيهم الطبقي انما هما نعمة مستترة . فالجماعة التي تحدد نسبيا مركزهـا الطبقي قد تكون اكثر قابلية لان تصبح جامدة ومحافظة في تفكيرها. لكن هذا الاحتمال لا يلوح في افقنا الثقافي. فالحياة الثقافية في العالم العربي تقاسي من عقم التفكير ومن محدودية القوى العقلية اكثر مما تقاسي من جمود الحواجز الطبقية او من الكبت الذي يسببه النظام الاجتماعي . والواقـع ان ما نحتاج اليه اليوم ليس طبقة ثقافية ، بل وليس نخبة ثقافية ، بل نحتاج الى التزام وتكرس يقوم بهما حملة النشاط الثقافي . غير انه مهما كان مدى تكرس هؤلاء ، فـانهم لا يستطيعون ان يعمـلوا ويفكروا في فراغ. فليس بوسع المثقفين ان يخلدوا انفسهم كجماعة متحدة بدون شيء من التقاليد الثقافية ومساعدة المؤسسات . وليس بوسعهم ايضـا ان يحافظوا ، بدون تلك التقاليد والمؤسسات ، على التراث الثقافي للمجتمع ولا ان يضيفوا له الشيء الكثير .

ولما كان المثقفون العرب يفتقدون اي تحسس بالهوية او بالوعي الذاتي كقطاع اجتماعي، ولا يمارسون بالتالي اي استقلال فكري او ابداعي حقيقي ، فانه ينقصهم ايضا المركز والامتيازات. ان نظرة الناس لاصناف المثقفين المتنوعة المتدرجة تختلف في البلدان المختلفة، وتعتمد على التقاليد والحاجات الثقافية في المجتمعات المختلفة . ففي المانيا مثلا تقدم اكاليل غـار الشهرة في المركز والامتيازات الى الاستـاذ الجامعي والبحاثة ، وتقدم في امريـكا للاختصاصي ، وفي فرنسا للاديب والكاتب ، وفي افريقيا للعقائدي السياسي. اما في عالمنا العربي ، فبسبب المشاكل السياسية والاقتصادية المعلقة ، تحتل الانتلجنسيـا البيروقراطية والسياسية المراكز العليا في الهرم الاجتماعي في الوقت الحاضر . يقول مانفريد هالبيرن : « ان الزعامة في كل مرافق الحياة في الشرق الاوسط تنتزعها طبقة من الرجـال الذين يستنيرون بمعرفتهـم غير التقليدية ، وهـي متجمعة اليوم في نواة من المدنيين والسياسيين العسكريين والمنظمين والاداريين والاخصائيين » .

يستثنى من ذلك لبنان — وفي بعض الحالات فقط. ففي الاقتصاد المنحاز نحو الخدمات، حيث تسود الروح التجارية وحيث الرغبة في القيم المادية والمالية قوية جـدا ، تكون اعلى الامتيازات في المجتمع من نصيب المتعاملين بالناس و المـال . اما المثقفون ، المتعاملون بالافكار، الذين «يعيشون على الثقافة ومن اجل ممارستها» ، فهم لا يزالون ادنى مستوى في هذا التسلسل الهرمي . فلا غرابة اذاً ان راح مثقفونا يكنّون بعض العداء لرجال الاعمال

– فالفريقان ، بحكم مهماتهما ، تسيّرهما حوافز ومطامح مختلفة كل الاختلاف . انما الغرابة ان يبدو ان الفريقين في لبنان متلائمان تماما احيانا: فالعلماء يقومون بجولات طويلة في عالم المال والاعمال ، والمؤسسات الاقتصادية الناجحة ترعى مشاريع علمية طمعا في تحسين فكرة المجتمع عنها .

ان مركز اية جماعة هو ، الى حد ما ، نتيجة لحجمها ونفعها . فاذا كانت الندرة ترفع القيمة ، فلا بد ان تدني الوفرة هذه القيمة . وقد ادى ازدياد فرص التعليم الى حصول اتساع كبير في حجم القطاع الثقافي ، بل والى حصول وفرة في القوة البشرية ذات الدرجة العالية من الحذق . صحيح ان فرص استخدام اصحاب الثقافة العليا ازدادت ، وان ازديادا حدث في الوقت نفسه في مشاريع مثل العلاقات العامة ودراسات الاسواق واجهزة الاتصال ، وهي مشاريع تستمد اجهزتها من اصحاب ما قد يسمى بالتدريب والاهتمام الثقافيين . لكن باستطاعة المرء ان يقول بشكل عام ان ثمة تضخما في انتاج المثقفين ، بمعنى ان في المجتمع كثيرين ممن يعتقدون ان ثقافتهم واهليتهم الفكرية تعوق ما امامهم من مجالات للعمل ومن وظائف . ويؤدي هذا الوضع الى نمط معين من الخيبة والعداء ، هو واضح جدا في المثقفين الشبان المتعلمين في مدارس اجنبية . غير انه يبدو على المثقف العربي ، بسبب مركزه المتقلقل ، انه يميل بصورة خاصة الى ما يدعوه نيتشه « بالرفض الكاره » . فمع انه يشعر بالغضب والعداء ، فهو يفعمه الاحساس بانه غير قادر على التعبير عن مشاعره تعبيرا فعالا ضد الوضع الاجتماعي الذي يسبب هذه المشاعر . لذا فهو يكتم رفضه وتبرمه في نفسه ، ويبقى عداؤه عاجزا قاصرا . ومع ان هناك سببا للثورة ، لم يثر في الواقع الا القليلون ؛ بل ان الذين اصبحوا من « الشبان الغاضبين » اقل عددا ايضا . فمثقفنا ، اذاً ، ليس انسانا غريبا مقتلع الجذور ، بالمعنى الذي تحدث دستويفسكي فيه عن المثقف الروسي . وهو ليس انسانا قلقا يرفض ان ينسجم مع حضارته الاصلية او ان يتعاون مع مؤسسات المجتمع الشرعية . لكنما يبدو ، بدلا من ذلك ، انه اعتزل المجتمع واتخذ لنفسه موقفا انهزاميا خاملا ، وانه يتابع ممارسة هذا الاحساس « بالعداء العاجز » ، ويجتني ، بالتالي ، ما يقدمه الخنوع والاستكانة من حين لحين من مكافآت .

فلا عجب ان بقي المثقفون العرب بدون سلطة ، ما داموا قد عجزوا عن الحصول على مركز الطبقة ذات الامتياز وذات النفوذ السياسي والافضلية الاجتماعية . والواقع ان هناك خطرا ، هو خطر تمتع المثقفين بما في المراتب الممتازة من وجاهة وسلطة قبل حصولهم على نضج ثقافي كافٍ . لانهم ان خسروا سلطتهم السياسية (وهو امر مرتقب الحصول اذا هم وصلوا الى هذه السلطة قبل النضوج الكافي) لم يبقَ لهم شيء كثير يعتمدون عليه .

وعلينا ايضا ان نتذكر ان افراد هذا الجيل الجديد من المثقفين، اصحاب الثقافة الاجنبية، حديثو العهد نسبيا : فهم لم يبدأوا بالظهور في العالم العربي الا حوالي مطلع القرن التاسع عشر . اما الجماعتان الاخريان من المثقفين التقليديين ، اقصد العلماء والمشايخ الصوفيين ، اللتان تنافستا عدة قرون على زعامة فكر الجماهير ، فلم تكن لهما في اي وقت من الاوقات قوة سياسية كبيرة . لقد كانت هناك حالات استثنائية بطبيعة الحال : ففي بعض فترات القرن السابع عشر كان العلماء اقوى طبقة سياسية في السلطنة العثمانية . غير انهم قصروا نشاطهم الفكري على القوة السياسية ، فحطّوا بهذا من مستواهم الثقافي، وخسروا احترام القطاعات الاخرى من الامة لهم .

اذاً فالقلم لم يكن في عالمنا العربي اصدق انباء من السيف الا في فترات قليلة فقط . ولم تكن المنافسة بين رجال القلم ورجال السلطة بالمنافسة الاخوية . فلم يكن المثقفون يُقبلون في صفوف الهيئة السياسية بسهولة . وعندما كانوا يُقبلون احيانا فليس بفضل مواهبهم الثقافية وانما لتبني شخصية سياسية تقليدية ما لهم او شمولهم برعايتها . والواقع ان المشاعر بين الفريقين متبادلة : فالسياسيون لم يسعوا ابدا نحو الزعامة الثقافية ، ولا اشتهى المثقفون الزعامة السياسية علنا . لكن يجب الا يقلقنا مثل هذا الوضع : بل ، على العكس ، لعله لمصلحة الجميع . فان المثقفين ، والحق يقال ، قد يثبتون انهم « خدم لا يقدَّرون بقيمة ولكنهم اسياد لا يُحتملون » — كما قال هارولد لاسكي .

عندما يعجز المثقفون عن الحصول على السلطة او على اعتراف النظام السياسي بهم ، فانهم غالبا ما يسعون الى ذلك الحصول والاعتراف عن طريق غير مباشر: بواسطة اشتراكهم في احدى وسائل التبديل السياسي — اي نقابات العمال والاحزاب السياسية والجماعات الضاغطة من وراء الستار. لكن هذه المؤسسات الطوعية لا تزال قليلة الاثر في العالم العربي كمؤسسات للتبديل السياسي او الاجتماعي . وقد فشلت ، باستثناء حالات قليلة ، عن جذب اي قطاع متطرف من المثقفين . والحقيقة ان هذا من اسباب استمرار فشلها حتى الآن. ثم ان المعارضة العلنية للفئات الحاكمة لا تزال الى الآن مغامرة خطرة وصعبة، خاصة في الدول ذات الحزب الواحد او الانظمة الاتوقراطية . اما الذين يختارون السبيل الاصعب غير المهادن ، سبيل المعارضة العلنية ، فكثيرا ما ينتهون كعاطلين عن العمل او كمنفيين سياسيين. وقد اسهم هذا العامل، هو وبعض العوامل الاخرى، في الجفاف الفكري المتفشي تفشيا كبيرا .

الحرية الفكرية ؟

يستعيض المثقف الغربي عما ينقصه من طمأنينة ومركز وقوة بحرية في البحث والتفكير. اما زميله في العالم العربي فيبدو انه يفتقد كل هذه الامور معا . فان ما فقده في المركز

(اذا ما قارناه مع ما كان يتمتع به العلماء في اوائل عصور الاسلام)لم يستعض عنه بشيء من الحرية . فهو لا يزال محروما من اية درجة معتبرة من الحرية في الدور الاجتماعي الذي يلعبه كباحث عن المعرفة وناشر لها . وهناك قيود على مجال البحث الحر وعلى طبيعته في بعض الدول العربية ، بسبب الاعتبارات السياسية وغيرها . ففي لبنان مثلا ، الذي يرعبه شبح قلب التوازن الطائفي الذي عرف به ، كثيرا ما يضطر الباحث الاجتماعي ان يتجاهل اي اعتبار للعامل الديني الذي قد يكون مهما لبعض نواحي البحث الذي يعمل عليه . ولنعط مثلا على ذلك : في اجتماع تمهيدي لمحرري وكتّاب دراسة ستصدر عن « السياسة في لبنان» اتفق الحضور اتفاقا ضمنيا (وكلهم من الباحثين الشبان في جامعات لبنان الكبرى)على تجنب اشراك المؤلفين الذين قد تثير اسماؤهم مشاكل او التعرض للقضايا الدقيقة والحساسة في المجتمع . كذلك الحال ، فان بعض الكتابات الفكرية النقدية لباحثين مصريين لم تستطع ان تبصر النور حتى الآن .

ربما كانت الجذور التاريخية لهذه الظاهرة (وهي جذور تمتد الى اعمق من اشكال الظاهرة الطائفية والسياسية)تكمن في طبيعة مجتمعنا التسلطي الفردي. وعلى رأس الصفات التي يتميز بها مجتمع كهذا ، انعدام حرية المرء في التعبير عن مشاعره وفي صياغة افكاره والمجاهرة بها . وبما ان العربي عموما حساس جدا للضغط الشعبي وحريص على المظاهر الخارجية ، فاننا نجابه احيانا تناقضا كبيرا بين سلوك المرء الاجتماعي الظاهري وبين تفكيره وشعوره الداخلي . فكثيرا ما يكون ما يقوله المرء ويفعله عكس ما يفكر او يحس به . ويتجلى هذا التناقض ، في حياتنا الفكرية ، في انعدام الصراحة في الافصاح عن الآراء وفي نقد الآخرين . فان انتقد مثقف آراء زميل له انتقادا موضوعيا ، قد يحمل نقده على انه ذم شخصي . وقلما يفصل الانسان عن آرائه وافكاره ، وبالتالي فان الهجوم على آرائه انما هو ايضا تهجم شخصي .

يستولي على المرء ايضا، في المجتمع التسلطي، شبح الخوف من معارضة الكبار او تحدي سيادة الانماط « المقدسة » . ولا يجد الا جزء يسير من العداء المكبوت مجالا للتعبير والافصاح عنه . « فالنفور والرفض ، بل والكره ، يقنّع بالموافقة الخارجية ... ويضحي القناع هو الرجل والرجل هو القناع » . وحاصل هذا كله اضمحلال العفوية والتلقائية والحرية الفردية . وليس ثمة اي شيء يمكن ان يقتل نوازع الابداع في جيل ما كما يقتلها مثل هذا الاضمحلال .

التوترات والمشاكل

بالاضافة الى حرمان المثقف العربي من امتيازات المركز والسلطة التي تتمتع بها نخبة

متضامنة تعي ذاتها ، ومن حرية التعبير عن الذات تعبيرا صادقا مستقلا ، تستبد به بعض المشاكل الحادة استبدادا عنيفا . واكرر القول هنا ان تحسس المثقف المتزايد بالمشاكل والازمة ليس بالضرورة مجرد انعكاس للوسط الاجتماعي السياسي الذي يعيش فيه ، بل هو يكمن ، الى حد ، في دور المثقف نفسه كحامل لمشاعل المعرفة والعقل في المجتمع .

العقلانية والتقليد

ان التوتر الذي على المثقف العربي ان يكافح ضده هو التفاوت بين متطلبات العقل والعقلانية التي ينتظر منه ان يعيش في جوها نظريا وبين القوى التقليدية غير العقلانية المتأصلة في حضارته . يحس بهذا التوتر بشكل خاص المثقفون الذين يتلقون دراستهم في المعاهد الاجنبية ويعودون الى بلادهم شديدي التأثر بالافكار وبسبل الحياة في الخارج لدرجة انهم كثيرا ما يظلون غرباء في بلدهم الاصلي لا ينسجمون معه ، — اذ انهم لا يستطيعون «العودة» الى اوطانهم بالمعنى الصحيح ، واذا عادوا فانما يعودون باحلام عن تقدم اوطانهم وتقدمهم هم ، سرعان ما تتبدد بشكل شنيع فيحسون بمرارة وخيبة .

لا ترجع هذه المرارة الى مجرد التفاوت بين احلام شبابهم وبين الواقع البشع الذي عليهم ان يجابهوه ، بل ترجع اكثر من ذلك الى ادراكهم المتزايد بان المعرفة التي حصلوا عليها والتدريب الذي تلقوه لا يُستغلان الاستغلال المناسب الصحيح. لذا يروح الشعور بالفشل والهزيمة يفتت قلوبهم . بالفشل — لانهم يرون انهم غير قادرين على العمل الخلاق في المجتمع ؛ وبالهزيمة — لانهم كثيرا ما يضطرون الى المساومة والسعي وراء بعض الوظائف التي هي دون مستواهم او اختصاصهم الثقافي . ومن نتيجة هذه المرارة وهذا العداء انهما اذا ظلا عاجزين فقد يقلبانهم افرادا ماقتين مزمنين للناس والمجتمع. فالعقل الذي تهزمه هموم المشاكل المعاصرة هو امام سبيلين : فاما ان يزداد اغترابه ، واما ان يلجأ الى امجاد الماضي او الى الروابط المحلية . وكلا هذين الاسلوبين الدفاعيين لا يؤديان الى الحياة الثقافية الخلاقة في المجتمع .

هذه هي المشكلة الملحة التي تنخس عقل المثقفين العرب : كيف يوفقون بين معطيات العقلانية وبين تقاليد الماضي الموثوق بها والتي اجتازت امتحان الزمان ؟ وتتضخم المشكلة لان الذين يعهد اليهم بامر حلها هم عادةً على طرفي نقيض : فهم اما من الشبان العلمانيين المتطرفين الميالين الى التبديل باي ثمن ، او من مواطنيهم التقليديين الذين يسعون للحفاظ على المألوف بدون قلب التوازن القائم . ان الجماعة الاولى واهية الصلة بالتقاليد ، وترفض الجماعة الثانية قبول الجديد . فكان من جراء ذلك ان اصبحت مكاتب التنمية في معظم الدول العربية تعج بالمشاريع المحتضرة وبمخططات الانشاءات الضخمة التي تظل حبرا على

ورق. و « مديرية التحرير » في مصر احدى الضحايا الغالية لهذه الصفة المزدوجة: التصميم الجريء والتنفيذ غير الفعال. فقد اراد مصممو المشروع ان يكون مظهرا لعرض فضائل الزراعة التعاونية وغيرهـا من الاهداف الاشتراكية ، لكنهـم استخفوا بقدرة المقـاومة والصمود التي يتصف بها بعض انماط السلوك التقليدي. وبالرغم من مال العقائديين السياسيين المخلصين لم يكن من السهل نقل الفلاح المصري العـادي بين عشية وضحاها الى عالم عقلاني غير شخصاني.

يدل فشل هذا المشروع وبعض المشاريع الاخرى المماثلة ، من جملة ما يدل عليه ، على العجز عن اجراء صهر ملائم بين العناصر العقلانية والتقليدية. ويجدر بنا ان نلاحظ هنـا امرا يناقض ما حصل للمثقفين الاسيويين المعاصرين: فان معظم المثقفين العرب ، الذين لم يتمكنوا من تكييف معتقداتهم العقلانية مع القيم التقليـدية السائدة، لم تستهوهم الشيوعية كامكانية بديـل. يظهر ان الشيوعية ، كعقيدة او كاسلوب في العمـل السياسي او النمو الاقتصادي ، غير مستحبة بشكل خاص عند كثير من المثقفين العرب. فهي قـد جذبت نحوها المتذمرين من افراد الطبقات المحرومة في مجتمعنا (كما فعلت في امكنـة اخرى) ، لكن القليلين نسبيا من المثقفين الذين يشعرون بالغربة انجذبوا نحوها. وهذا دليل آخر على ان القربى والعصبية والولاءات التقليدية الاخرى لا تزال اقوى من بعض الالتزامـات العلمانية والعقائدية.

طبيعي ان المثقفين لا يسعون جميعا وراء بدائل للاستعاضة بها ، وان عددا اقل يدرك ما تتضمنه مشكلة كهذه. فالاغلبية — وهنا تكمن معضلة حياتنا الثقـافية — تتصرف كأنها تريد « ان تحتفظ بالكعكة وان تأكلها في آن واحد ». فبينما هم يلتزمون السعي وراء العقـل والعقلانية لا يكنّون الا قسطـا يسيرا من شعور الكراهية للسلطة التقليدية وللمؤسسات « المقدسة » في المجتمع.

المثقفون والانتلجنسيا

في معظم المجتمعات المتطورة كان يوجد على الدوام شيء من العلاقة المتينة بـين التعليم العالي والوظائف الحكومية. والعالم العربي لا يشذ عن ذلـك. والواقع ان حكوماتنا ، بازدياد التأميم ومراقبـة الدولة للمرافق العـامة ، تتحول تحولا مطردا لتصير المستخـدم الرئيسي لكافة فئات الخريجين الجامعيين على جميع المستويات. ولا حاجة للتدليل على ما في الوظيفة الحكومية من اغراءات ، خاصة في المناطق التي يتقلص فيهـا القطاع الخاص. وقد لاحظ الاستاذ مورو بيرغر في دراسته عن البيروقراطية في مصر ان مزيجا من الحاجة، والتراث التقليدي، والتخطيط المتقصد، هو الذي وجه طموح النخبة المتعلمة نحو الوظيفة

الحكومية: « فقد تجلت الحاجة في الوفرة البالغة للشباب المتعلم في بعض الحقول في المجتمع الزراعي . ونشأ التراث التقليدي في مطلع تاريخ مصر الحديث عند انشاء التعليم المدنيغير الديني لتدريب موظفي الخدمة المدنية . ودعم التخطيط المتقصد كل هذا بوضعه اغراءات في الوظائف تدفع نحو تحصيل علمي رسمي » .

لا شك ان هذا الاتجاه ، مهما كان مدى قوته ، قد ترك آثاره في الحياة الثقافية في المجتمع بشكل عام . فبينما كان حافزا الى نمو البيروقراطيين والتقنيين (مع كل ما تحملهذه النشاطات في ثناياها من شرور) ، ضيق الخناق على نمو ذلك الضرب من النشاط الثقافي الذي يزدهر عادة في المهن الحرة المستقلة .

لا يزال يوجد في بعض الحالات مثقفون مستقلون وغير مرتبطين بالسياسة ، لكنهم اقلية ، وتستهلك القلاقل السياسية معظم مواردهم الثقافية . فيبدو عليهم انهم مشغولون تماما في تعليل عدم الاستقرار السياسي او في تبرير نوع ما معين من الحكم . لا ننكر ان ذلك امر متوقع في مجتمع يمر بتغييرات سياسية واجتماعية بالغة . بل انه يمكن اتهام المثقفين باتباع سياسة النعامة لو لم يبالوا ولم يحسوا بعوارض الانحلال السياسي الذي يتفشى بمجتمعهم . الا انهم ايضا قصيرو النظر ثقافيا ان كانوا لا يرون غير هذه الامور .

لست ابدا اطعن في دور مثقفينا واهتمامهم السياسيين . فلا ريب ان طبيعة المجتمع العربي المعاصر تبرر هذا الوعي السياسي. انما ارى ان هذا الاهتمامهو على حساب نشاطات ثقافية اوسع واكثر ابداعا في المجتمع. اذاً فلا جدال في ان **الانتلجنسيا** ضروريةواساسية في عالمنا العربي المعاصر — واقصد بالانتلجنسيا تحديد الاستاذ سيتون وطسون لها بانها تتألف ممن لهم « ثقافة عصرية ويعيشون على الافكار السياسية والاجتماعية ومن اجلها » . انما يجب الا نخلط بينهم وبين جماعات **المثقفين** الذين يخلقون الثقافة ويحملونها ويطبقونها . وبالاضافة الى ذلك ، ما دامت الجماعتان تنبعان عن مصدر واحد ، هو النخبة المثقفة ، لا يمكن ان توجد اي منهما الا على حساب الجماعة الاخرى . وانها الانتجلنسيا، وليس النخبة المثقفة ، هي التي تحصل على نصيب الاسد في مراكز القوة والامتيازات في المجتمع .

تنجم هذه المعضلة توترات عدة . على رأسها التوتر الذي يحس به المثقف (والامر هذا لا ينحصر في المثقف العربي ابدا) بسبب الطبيعة المزدوجة لدوره . فهل يبقى «رجل تأمل » ، عالما منعزلا، ينشد حياة فكرية في انقى صورها المجردة ويدافع عنها؛ او يصبح « رجل افعال » ، يتشوق للاسهام في الجهاد السياسي والاقتصادي في مجتمعه ؟ ان القول بان هناك مجالا لكلا النوعين لا يخفف من التوتر نفسه . فالعالم العربي اليوم في حاجةماسة الى الافعال المتنورة، وان الضغط على النخبة المثقفة لكي تسهم في حركات الاصلاح وبرامج

التطوير ، وواجب النخبة بالاسهام فيها ، لكبيران . لايستطيع ان يتجاهل هذا الواجب الوطني الا القليلون ممن قد فقدوا الاحساس . بل ان المثقفين ، اذا نجح بعضهم في التمتع بقدر نسبي من العزلة فانهم ينقادون دوما الى الخضم الاجتماعي والسياسي في مجتمعاتهم حينما تبدأ تصرفات السياسيين ومخططي السياسة تهدد بمضاعفات ثقافية خطيرة . فبقاؤهم والحالة هذه كمراقبين حياديين انما هو دعوة لغير المختصين وغير المدربين لاخذ زمام المبادرة والعمل. ومن جهة اخرى، ان الانغماس المتزايد في مختلف نواحي البيروقراطية الحكومية قد يؤول في النهاية الى القضاء على المثقف الحر غير الملتزم .

يجب الا نبالغ في التأكيد على ان تعاطي العمل السياسي والعام لا بد ان يفسد المثقفين، ومع هذا يتخوف الكثيرون من المثقفين الشبان ان يؤدي انتسابهم للدولة كموظفين فيها الى ابطال ملكة الخلق والنقد عندهم – وقد بررت الاحداث السياسية الاخيرة مخاوفهم هذه . واذا كان زملاؤهم في اوربا (خاصة في فرنسا ، وفي بريطانيا الى درجة اقل) يشعرون بحرية نسبية في خدمة الدولة ، فلأنهم يتمتعون بمراكز مريحة تؤمن لهم حياة محترمة. فبالاضافة الى وظائف السلك الاداري، تعاقد الكثيرون منهم مع هيئات الاذاعة والتلفزيون في الدولة ومع مراكز اخرى كالمتاحف وسائر المؤسسات الوطنية والثقافية. ثم ان لديهم اندريه مالرو وسي.بي.سنو كوزيرين للثقافة والتقنولوجيا – وهما مثقفان لامعان جدا كرسا نفسيهما لخدمة العمل الثقافي وتنميته . قليلون جدا هم المثقفون العرب الذين يعملون في مؤسسات ثقافية مناسبة ، واقل منهم فعلا هم الذين يستفيدون من العمل مع رؤساء ملهمين مثل مالرو و سنو ومن شابههما. ولو ان احد مفكرينا الكبار يعين وزيرا للثقافة، لنجح بلا شك في اكتساب معاضدة المثقفين وعطفهم ، وهم الذين كانوا ليترددون في العمل مع وزير هو مجرد رجل سياسي. ولكن الذين يستطيعون او يرضون ان يؤدوا مثل هذا الدور المزدوج قليلون جدا . والذين يستطيعون او يرضون تأدية مثل هذا الدور مضطرون الى ان يخسروا بعض المكانة التي يتمتع بها في العادة المثقف المستقل غير المرتبط .

ويخيل الينا ، من جهة اخرى ، ان المثقف العربي المعاصر سجين مأزق آخر لا يقل عن هذا اقلاقا واجهادا . فهو ممزق بين ولائه للقومية العربية وبين حوافز الابداع الثقافي والفني . فهو لا يستطيع ، كمواطن ، الا ان يتأثر بالازمات السياسية والقومية الحاضرة ، ويشعر بان عنكبوت المشاكل السياسية والاقتصادية قد اصطاده بخيوطه . لكنه يدرك ، كمثقف، ان تعاطيه العمل السياسي سيحدّ في النهاية من اسهامه الثقافي. وهنا تكمن المعضلة. فلن تحافظ الثقافة العربية على قيمتها الا اذا حوفظ على الاهداف والآمال العربية ؛ واذا

احب المثقفون ان يشتركوا في هذه المهمة القومية (ويبدو ان معظمهم ميالون الى فعل ذلك) لن يبقى لهم غير مجال ضيق للاسهام الثقافي .

مهما كانت الزاوية التي ننظر منها الى المعضلة، نرى حياة المجتمع الثقافية في انحدار. فما دامت خيرة الادمغة في مجتمع ما تستنفدها الشواغل اليومية البيروقراطية التافهة او المسائل السياسية (مهما بدت اهميتها وضرورتها) ، ظل هناك دائما نقصان في الذين يمكن ان يكونوا مبدعي ثقافتنا . ويمكن القول (ولو حمل على محمل المبالغة) ان ما هو موجود اليوم في العالم العربي انما هو انتلجنسيا بيروقراطية سياسية الوعي ، وليس نخبة ثقافية حضارية الوعي .

الثقافة الجماهيرية والثقافة العليا

لم تنجُ الحياة الثقافية في عالمنا العربي من آثار غزوة وسائل الاتصال الجماهيرية. فعدد الذين تتيسر لهم سبل اجهزة الاذاعة والتلفزيون والكتب والصحف والدوريات الرخيصة هو اليوم اكبر منه في اي وقت مضى. وبازدياد هذا التعرض لوسائل الاتصال ، بدأ المثقفون العرب يشاركون زملاءهم في الغرب في التخوف من تدني الثقافة الشعبية في مجتمع جماهيري. صحيح ان المجتمع العربي ، بروابطه المحلية والعائلية القوية ، بعيد بالفعل عن ان يصبح « مجتمعا جماهيريا » ، ومع هذا فهناك خطر في تسليم عملية بث الثقافة الى وكالات واجهزة تجارية . ويحرص بعض المثقفين الشبان الموهوبين (وهو حرص له ما يبرره) على ان لا يمر مواطنوهم من مرحلة الامية الى الثقافة الشعبية بسرعة ، بدون قيام مرحلة انتقالية يحصل فيها تكرس واستيعاب تدريجي اصيل للفنون والعلوم .

وقد بدأت عوارض هذا الخطر تظهر بالفعل . فالصلة الرئيسية بين عدد من خريجي الجامعات والعالم الخارجي هي مجلات شعبية مثل « تايم » و « لايف » و « نيوزويك » ، التي هي ليست مجرد وسيلة للمعلومات ، بل مصدر اذواق جديدة في الاستهلاك واساليب الحياة والفكر . يضاف الى ذلك ان كل شيء ذي معنى اجتماعي ، يمكن بسهولة ان يتحول الى رمز للمركز الاجتماعي في المجتمع المتطور بسرعة. فاصبحت الثقافة، او ادعاء الثقافة، رمزا للمركز الاجتماعي، على الاقل لدى الجوانب الاكثر عصرية في مدينة كبيروت . لهذا فانت تسمع الناس في احاديثهم اليومية العابرة ينثرون من حين لآخر اسماء كبودلير وبروست وكافكا دون ان يكونوا قد قرأوا ايا منهم. وترانا نشجع الفنون ونحضر الحفلات الموسيقية لمجرد ان يشهدنا الآخرون فيها . ونشترك بدوائر المعارف والمكتبات المنزلية ونقتنيها كاثاث بيتي ومادة للحديث . وباختصار ، يتظاهر مدعو الثقافة باهتمامات ثقافية كطريق مختصر نحو المركز الاجتماعي .

وينطبق هذا على التعليم ايضا : فالرغبة بالتعليم العالي رغبة وصولية منفعية ، تتجلى

لا في الميل نحو التدريب العملي التطبيقي والتقني فحسب ، بل ايضا في الطمع بالدرجات العلمية من اجل الحصول على الالقاب والامتيازات التي تحملها معها هذه الدرجات . ففي لبنان ، مثلا ، يسعى الناس وراء الالقاب العلمية الجامعية ويدّعونها بمقدار من الحماس لا يستطيع معه المرء الا ان يشعر بان الهدف من التعلم هو قيمة الجاه الخارجية الظاهرة وليس القيمة الثقافية الاصيلة الكامنة في تلقي العلم . كما ان الاحترام الذي يكنّه الناس لحملة الشهادات والزهو الفاضح الذي يعرض به اصحاب الشهادات شهاداتهم دليل آخر على ان الدافع الى الرغبة في التعليم العالي هو ارضاء الغرور والكبرياء . فكل امرىء تقريبا يصبح « استاذا »، وكثيرا ما تكون المؤهلات للحصول على هذا اللقب مجرد كون حامله لا يعمل اعمالا يدوية ، سواء اكانت عنده شهادة جامعية ام لم تكن . وهو لا ينسى ان يحمل بطاقات الزيارة التي تحمل ما هب ودب من الرموز والشعارات التي بامكانه ان يدعيها لنفسه . وتحمل لوحات خاصة شعارات الاطباء والمحامين والصيادلة؛ وقد استولت الغيرة على الجماعات المهنية الاخرى فراحت تطالب بامتيازات مماثلة . ولم تعد اوراق الرسائل تحمل لوحدها كافةالشهادات والالقابالتي حصل المرء عليها او التي يدّعيها لنفسه، بل اصبحت تحملها ايضا لوحات الاسماء على مداخل البيوت والشقق . والناس حريصون على ان يخاطب بعضهم بعضا باسلوب رسمي مفخم، حتى العلماء منهم في الجامعات — حيث الالقاب وافرة والحصول عليها امر يجب ان يكون مفروغا منه .

يراقب المثقف كل هذا مكتوف اليدين ويخالجه شعور مزدوج : فهو يعترف بحسنات وسائل الاتصال الجماهيرية كوسائل للتبديل الاجتماعي والثقافي ، ولكنه يعلم ايضا بألم ان لتلك الوسائل اثرا سيئا في تدني المستويات الثقافية العليا . ويتجاذب المثقف عاملان : عامل ولائه لنوازعه الخلاقة ولاشكال التعبير الذاتي ، وعامل اغراءات النجاح التجاري وانتشار السمعة بين الناس . فان هو مال الى هذه الاغراءات فانه يخون بعض فضائله الثقافية ، وان هو حافظ على مستوى النوعية والمناعة الذاتية فانه يتعرض لفقدان جمهور كبير من القراء . ان التوتر الذييكمن في معضلة كهذه هو اشد ما يكون في المجتمع الذي تندر فيه الموارد الثقافية . واذا كان المثقف العربي يحس بالقلق فلأنه يبدو عاجزا عن التوفيق بين نوازعه الخلاقة كمثقف وواجباته المدنية بان يكون عضوا نافعا في المجتمع .

ملاحظات ختامية

يتمخض العالم العربي اليوم ، كما تتمخض المجتمعات الاخرى التي تمر بمرحلة انتقال ، عن تغييرات عميقة ومستمرة. وعلى الكثير من هذه التطورات والاحداث الجديدة يتوقف

تركيبه الاجتماعي . وقد حصلت بعض هذه التغيرات بسرعة مخيفة : ذلك ان الاشكال الجديدة من المواصلات ، وازدياد التعرض لوسائل الاتصال الجماهيري ، وتضاؤل اشكال السلطة التقليدية كالقربى العائلية، وظهور حركات اجتماعية جديدة ونخبة متسلطة وتحرير المرأة، والاسهام اكثر من ذي قبل في شؤون الاقتصاد والسياسة — ذلك كله خلق مشاكل جديدة تحتاج الى احاطة وتعديل وتكييف . ومن الطبيعي ان تحتاج هذه التطورات الى حلول جديدة واختبارات وتجارب جديدة . ان مجرد كون المجتمعات الغربية مرت بهذه التغييرات من قبل لا يجعل من الضروري ان نقتبس نفس الاطارات والمقاييس ونطبقها على علاتها. ان المطلوب هو انتقاء ما يصلح منها وتكييفها لغاياتنا، وليس تطبيقا عاما بالجملة .

فنحن نحتاج في هذه الفترة من الانتقال وعدم الاستقرار الى قوة وقيم ثقافية اكثر مما كنا نحتاج لها في اي وقت مضى. نحتاج الى المعونة الانتقادية والى المجهودات المخلصة يبذلها الذين كرسوا طاقاتهم لخدمة العقل ، الذين يعيشون على الثقافة ومن اجلها . ولا ننسَ ان المثقفين، وان الطبقة الوسطى التي انبثقوا عنها، هم الذين كانوا سبب معظم هذه التطورات.

قد يكون باستطاعة الجيل الجديد من الجامعيين الذين درسوا في الخارج وتلقوا علومهم في الجامعات وتشربوا فضائل العقلانية والحرية ، ان يسدوا هذا الفراغ في حياتنا الثقافية. لكن هذا الامل كان حتى الآن امنية اكثر منه حقيقة منجزة. فكما بينا سابقا ، لا يفتقد المثقفون التضامن والوعي الذاتي كقطاع اجتماعي فحسب ، بل انهم يفتقدون نسبيا ايضا المركز والحرية الثقافية التي تمكنهم من ممارسة استقلال فكري خلاق. ويستولي عليهم الذعر ايضا من معضلات كامنة ترهق علاقاتهم بالمجتمع ودورهم فيه .

مطلوب منهم ، اولا ، ان يصهروا العناصر التي يمكن ان تتعايش معا في الثقافتين التقليدية والمعاصرة . يعني هذا ، على الصعيد العملي ، ان على عاتقهم مهمة التعبير عن « المشاعر التقليدية في مصطلحات حديثة ، وصهر وتطوير الاتجاهات التقليدية وصوغها في اساليب حديثة ». ومطلوب منهم، ثانيا، ان يوفقوا بين دورهم كعلماء منعزلين او مراقبين قليلي الاهتمام بالمشاكل السياسية وبين توقهم للاسهام في الكفاح السياسي والاجتماعي من اجل مجتمعهم . وهذه ايضا مهمة صعبة : فهي تستدعي ، من جملة ما تستدعيه، اجراء مساومة بين ولائهم للقومية العربية وبين نوازعهم القوية للمشاركة في الابداع الفكري . ومطلوب منهم، اخيرا، ان يحلوا معضلة نشر الثقافة في اوسع مجال بين الناس دون ان يدنوا مستوى محتواها الفني ودون ان يرخصوها .

كل هذه مهمات خطيرة ترهق ادمغة العدد القليل من المفكرين الموجودين حاليا عندنا. وان الاحتفاظ بنوع من التوازن بين هذه الجهود هو وحده كفيل بان يخفف من التوتر

ويضمن توزيعا عادلا واستثمارا مثمرا للموارد الثقافية في المجتمع . اما اليوم فاننا لا نزال بعيدين عن تحقيق هذا الهدف . ومن المستبعد ان نقترب منه اذا ثابرنا على السير في سبيلنا الحالي ، الذي يوجه جميع الطاقات العاطفية والعقلية عند المثقفين الشبان نحو المسائل السياسية والاقتصادية دون سواها . عندما يفكر المرء بالتضحيات التي تبذلها مجتمعاتنا المتطورة في انتاج مثقف واحد ، وعندما يفكر بتبذيرات طاقاتنا الفكرية وجفافها السريع ، لا يستطيع الا ان يندب مثل هذا التفاوت في الموارد الثقافية . فان تدني المستوى الثقافي في المدنية العربية قد يكون الى حد انعكاسا لانغماس مثقفينا انغماسا زائدا بالكفاح السياسي والاقتصادي في المجتمع . ولكن بما انه لا مفر من هذا الوضع ، وبما ان هناك املا بان يكون هذا مجرد ظرف انتقالي مؤقت ، لا جدوى من الاعتذار عن هذا الوضع . ولكن لا فائدة ايضا من الانغماس في التعصب الثقافي المتطرف ، سواء اتخذ هذا التعصب شكل تمجيد يفوق حد المعقول للحضارة العربية الغابرة او شكل تحقير لحضارات الامم الاخرى . فعلينا بدلا من هذا التعصب ان نتحاشى خلط الثقافة بالسياسة . فان طبقة لا جذور لها ، طبقة من انصاف المثقفين من التقنيين والانتلجنسيا السياسية ، ليست بديلا عن النخبة الثقافية ، عن مبدعي الثقافة وحملتها .

واخيرا ، بالرغم من حياة المثقف العربي المضطربة وواجباته الجمة ، ليست آماله وتشوقاته ببعيدة المنال او صعبة التحقيق . فهو لا يتوق الى جمهورية كجمهورية افلاطون ، فلاسفتها ملوكها وملوكها فلاسفتها . ولا يحلم بعالم ميكافليّ يلازم مثقفوه امراءه . كل ما يتشوق اليه هو اعتراف متواضع بقيم العقلانية والحرية . لا مجرد تحرر فكري من مكاتب المراقبة السرية والاجهزة البيروقراطية المستبدة ، لكنما ايضا حرية في البحث عن منافذ ملقائية للتعبير عن الذات ولتحديد الذات . وعلينا ان نتذكر دوما ان هذه الآمال والتشوقات لا يمكن ان تخمدها وتسكتها شعارات الاصلاح الاجتماعي والرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي .